قضايا الأدب والأدباء

مبادرة .. قبل المبادرة !

سليمان فياض

في القاهرة ، وعن « دار الثقافة الجديدة » ، صدرت في هذا العام رواية قصيرة ، للصحفي الاديب « عبد الله الطوخي » . ودار الثقافة الجديدة ذات وجه تقدمي ، بشعارها « حمامة السلام » ، وباختياراتها لما تنشره من مؤلفات عربية ومصرية ، ومن مطبوعات مترجمة عن دول العالم الاشتراكي ، وقضاياها وتجاربها. وصاحب هذه الدار هو « محمد الجندي » وهو احد الوجوه التقدمية في مصر، وقد عانى مرارا من السجن والاعتقال. وهو ايضا احد انجال المناضل المصري العظيم « يوسف الجندي » ، الذي تحدى الانجليز والقصر اثناء ثورة الشعب المصري عام ١٩١٩ ، واستقل وهو طالب بالجامعة بمدينته زفتى ، واعلنها جمهورية عاشت ستة عشر يوما .

و « عبد الله الطوخي » ، هو الاخر كاتب ذو وجه تقدمي ، في احاديثه مع الاصدقاء ، ومواقفه في التجمعات الثقافية ، التي تناضل من اجل استخلاص مكسب وطني ما ، وقد سبق سجنه سياسيا لمدة ثلاثة اشهر . لكنه في كتاباته صحفي قدير باستعداده الادبي، وفنان مثالي في رؤيته للواقع ، لا يدين نفسه فيما يكتبه بكلمة ، او موقف ، او رؤية ، ويؤثر المهادنة ، والاستمرار في النشر في مجلتي صباح الخير ، وروز اليوسف ، واصدار الكتب طوال اكثر من عشرين سنة . وعدم اتخاذ موقف محدد فيما يكتبه من مجموعات قصصية ، بلغت عدتها ست مجموعات ، واعمال مسرحية بلغت عدتها خمس مسرحيات ، واعمال روائية قصيرة بلغت عدتها اربع روايات ، آخرها رواية « فجر الزمن القادم » ، قضية هذا المقال وموضوعها .

وقضية « فجر الزمن القادم » هي قضية السلام والحرب بين العرب واسرائيل عامة ، ومصر واسرائيل خاصة .

في هذا العام ، عام ١٩٧٩ ، وبعد ان وقعت اتفاقية السلام ، اتفاقية كامب ديفيد الشهيرة ، بين مصر واسرائيل ، نشر «عبد الله الطوخي » روايته ، واصدرتها له دار الثقافة الجديدة ، ولا يعلم احد : ان كان الكاتب قد نشر روايته على حسابه في هذه الدار ، ام انها هي التي تولت امر النشر والتوزيع وتكاليفه ؟ وايا كان الامر، فقد وضعت الثقافة الجديدة شعارها عليها خطا ورمزا، وتولت هي توزيع هذه الرواية في السوق ، مع باعة الصحف على الارصفة ، وفي واجهات المكتبات الصغيرة، المتناثرة في احياء القاهرة . وحتى لا يتهم الكاتب«عبدالله الطوخي »بانه قد كتب روايته في اطار مبادرة السلام ، بعد المبادرة ، او بعد اتفاقية كامب ديفيد ، ذيل آخرها بهذا التاريخ « اغسطس ١٩٧٨ »، ليؤكد للقراء وللمثقفين في مصر ، وفي الوطن العربي ، انه كتب هذه الرواية استجابة لضميره ، وانه بها ــ وان تأخر نشرها قرابة عام ــ قد صنع مبادرة قبل المبادرة ، وتنبأ بها . والذي أعلمه من اصدقائي واصدقائه ، انه كتب روايته هذه بعد المبادرة ، كما قال لهم هو ، وانه آثر ان لا يتهم بركوب الموجة ، فهذا هو رأيه فيقضية الصراع المصري العربي الاسرائيلي . ترى لو ان المبادرة لم تحدث من الرئيس « انور السادات » : هل كان عبد الله الطوخي يجرؤ على نشر روايته هذه ، سواء كتبها قبل المبادرة او بعدها؟ وهل لو حدث لسبب ما ، وفشلت اتفاقية كامب ديفيد، ماذا سيكون موقف « عبد الله الطوخي » وتبريره ، وما مدى شجاعته في مواجهة هذا الموقف المحتمل لاكثر من سبب ؟!

رواية « فجر الزمن القادم » ، مسرحها حصن من حصون خط بارليف ، وزمنها في الايام القليلة لحرب ١٩٧٣ ، وبطلاها : جندي مصري يحمل اسم ربيع عبد الحكيم ، وجندي اسرائيلي اسمه : ايليا . اكتسح الجنود المصريون هذا الحصن ، وافاق احدهم فيوسط قصف لا نعلم ممن هو ، ليجد نفسه جريحا . يزحف في الليل ليختبيء من القذائف في ظلام الحصن ، ويلتقي فيه بايليا جريحا يتألم هو الاخر ، وكلاهما فزع، وخائف من الاخر ، وجائع وظمآن . وناجاه ربيع آملا ان يكون مصريا مثله : « واضح اننا قريبان من بعضنا . امد لك

ذراعي . على آخره . أمده على الارض . مد لي أنت أيضا ذراعك » . وحين يعثر على كفه ، يهمس لنفسه في سره : « هذه الحركة تؤلمني ، لكنها ايضا .. تمنحني يد انسان في هذا الظلام . فيهذاالجو المُرعب» .وتخوف ربيع من يد الجريح فقد يكون جنديا او ضابطا اسرائيليا « والحرب ما زالت مستمرة . والحرب خدع ، ومفاجآت » ، ويأتي الصوت الضعيف اليه فيدرك انه اسرائيلي . ويبحث عن سلاح فيكتشف انه أعزل (ويكتشف فيما بعد ان ايليا ايضا أعزل . والحصن كله أعزل ، ليس فيه قطعة سلاح ، وهو حصن اقتحمه مصريون ، ودافع عنه اسرائيليون ، لكنه مع ذلك ، جرد من سلاحه وذخيرته ، لسبب ما ، معانه ظل قائما ، فهكذا اراد الكاتب ، ليخلي المسرح ، من كل وسائل العدوان ، فالحياة عنده ، كما يقول في روايته «مجموعة من المصادفات »..

ويفكر ربيع في قتله خنقا ، ويتذكر قصص الفظائع الاسرائيلية ، لكنه يتذكر فجأة قوانين الحرب الدولية ، وان عصف بها الاسرائيليون في حروبهم ، فيشعر بالخجل ، ويبدأ بينهما الحوار ، عن « نور » حبيبة ربيع ، وعن « سارة » حبيبة ايليا (هكذا دفعة واحدة) ، وعن الماء ، فكلاهما ظامىء ويهذي ايليا بأن « الماء في .. في الـ .. الـ » . ويستعجله ربيع « في الماذا ؟» ، فيهذي ايليا قائلا : « في البئر .. بئر سبع .. بئر زمزم » . فعبد الله يمهد للوحدة بينهما ، وللاتفاق ، وللسلام ، ويعي ربيع ان صاحبه يهذي . ويقول لغير سبب لايليا: « سوف اذهب الى الجنة . اما انت . فقلبي معك . ستذهبون الى النار . كلكم ستذهبون الى النار » فيجيبه ايليا : « كلنا . نحن وانتم في النار . في الجحيم . الجحيم هو ما نحن فيه ». ويفتخر ربيع بان بلاده حطمت خط بارليف الاسطورة ، فيجيبه ايليا بان الاسطورة ستعود من جديد . ثم .. يقول : « وسنهزمكم من جديد ، ثم تهزموننا مرة اخرى . وهكذا . انه قدر رهيب . رهيب . الى متى سيظل هذا العطش » !!

الطريق اذن مفتوح تماما ، والسير فيه قد دبره الكاتب سلفا ، ورسمه ليسير كلاهما فيه نحو الاتفاق ، والصلح ، بل السلام والاخوة الانسانية ، وبرغم ما قد يحدث بينهما من تخوفات وتحسبات ومحاذير ، فانهما سرعان ما يحرص كلاهما على حياة صاحبه ، ويتنازل كلاهما نفسيا للاخر . بل انهما دائما يشعران بالمشاعر نفسها ، في اللحظة نفسها ، في تواقت زمني متعمد من الكاتب في الرغبات الاخوية ، وفي التخوفات العدائية .

ويحدث دوي لقنبلة قريبة ، تميد لها الارض !! ، ويغيبان مع ميدها عن الوعي ، « وحين طلع اول ضوء من اضواء النهار البعيد ، كان (المشهد) واحدا من اغرب بني الانسان على هذه الارض : مصري مسلم ، ويهودي اسرائيلي (غير صهيوني بالطبع) راقدان على الارض ، ومتعانقان (!!) . كان الرعب المشترك والرغبة في الحياة قد مزجا بينهما في عناق .» . وينتهي الفصل الاول بين الفصول السبعة ، كأيام الاسبوع ، السبعة العجاف ، في هذه الرواية الـ ..

ربيع وايليا ، يواجهان مشكلة التفاهم بلغة . ولان ايليا لغته العبرية ، وربيع لغته العربية ، فعبدالله الطوخي قد وجد حلا لهذه المشكلة ، فجعلهما يتكلمان بالانجليزية ، فربيع جامعي تخصص « كيمياء اراضي » . وايليا جامعي ، تخصصه « انتروبولوجي » في التاريخ . يفيق ايليا على ربيع يحتضنه ، فينفر منه ، لانه واحد من الوحوش المتخلفة التي تصيح: الله اكبر ، وتشرب من دم الضحية(!!) وهو ايضا يجب ان يكون متوحشا ، ويتعلم شرب الدماء لا الماء . ويجيئه صوت المصري : « ماء . اريد .. ماء .» ويراه ايليا كتلة في انتظار الموت : « الافضل أن أتركه يموت . لن اقتله ، فانا انسان متحضر . نحن قوم متحضرون » .

ويطلب ايليا العون من عدوه في البحث عن ماء في المطبخ . ويدعوه لمقاومة الموت : « ها .. هي .. يدي .. هات يدك » . ويعجزان ، ويطير كلاهما في اللحظة نفسها داخليا الى بلده ، ايليا الى : تل ابيب ، وربيع الى : « سنورس ، فيوم .. مرورا بالقاهرة ، والهرم الكبير » . ويقول ايليا : « الاهرامات تعتبر من التراث البشري ، اكثر منها تراثا مصريا » . فيجيبه ربيع : « حتى الاهرام ، تريدون ان تحرمونا منها » . ويتراجع ايليا سريعا ضد الخلاف : « كيف ؟ ليس قصدي » . « بل قصدك . ان هناك من يريد ان يثبت ان الاهرامات ليست صناعة مصرية . لماذا ؟ لانها عمل عبقري . والشعب المصري ليس عبقريا . واذن فلا بد ان جنسا او قوما آخرين هم الذين بنوها . معادلة رياضية !» . هكذا قال ربيع لايليا وهو يمارس معه الحياة . (ملحوظة : قيل مثل ذلك على لسان بيجين بعد المبادرة واثر تحليقه بطائرته في اول زيارة لمصر فوق الاهرامات) .

يطول بنا الاستعراض لهذه الرواية . دون تقدم درامي يذكر ، وسط جو ساكن تقريبا . فالمواقف على قلتها ، ان كانت ثمة مواقف ، يمكن ان يتطور في ظلها ، وبسببها ، البطلان ، قد تحدد لها خط السير من البداية: السكون . فالحركة استاتيكية تماما . والحدث فاقد كلية لديناميكيته . وجو الحوارية المدبرة سلفا هو الجو السكوني السائد ، برغم ان اكثر الرواية سرد وصفي وصحفي ، هو في حقيقته تكميل وتمهيد او تعليق على هذه الحوارية المتعمدة ، ولذلك سنقتطف منها مقاطع حوارية ، تعكس لقارىء « الآداب » افكار « عبد الله الطوخي » عن الحرب والسلام بين العرب واسرائيل ،

كما اوردهما عبر الصراع المتخاذل ، في نفس كل من ربيع . وايليا ، حسب المسار السكوني ، لحدث هذه الرواية الساكنة :

....

ايليا : لماذا لم تعمروا سيناء ؟

ربيع : كيف نعمرها وانتم تحتلونها ؟

ـ : لم نحتلها الا منذ ست سنوات . فأين كنتم قبل ذلك ؟

ـ كنا نحارب الانجليز . مائة الف جندي انجليزي (الصحيح ٨٠ الف) كانوا على طول القناة ، يحولون بيننا وبين سيناء . من انت حتى تحاسبني على تعمير سيناء او عدم تعميرها ؟

ـ لا . في هذا العصر ليس هنا أحد حرا ، في أن يترك قطعة من الارض بوار بينما الملايين يموتون من الجوع . الاثبات الحقيقي انك جدير بهذه الصحراء، ان تزرعها ، وتشيع فيها الخضرة . وهذا ما فعلناه : الكيبوتزات .. الخضراء.

ـ (ساخرا وبغيظ) تقصد المستعمرات التي تخفونها تحت اسم المستوطنات . أليس كذلك ؟

ـ نحن لا نخفي مجد اسرائيل .

ـ المجد القائم على الاغتصاب . نعم انتم لصوص.

....

لكن كل الخلافات تحل بيسر وسهولة بين ربيع وايليا .

ايليا : الحقيقة . انتم المصريون شجعان . لاول مرة نتواجه في معركة . صدقني . يمكن ان تكونوا انتم الذين بنيتم الهرم الاكبر .

وفاجأت ربيع الكلمات . هزته بعمق . هذا الاعتراف من العدو ووجد نفسه ينظر اليه بحب شديد ...

ربيع : نعم .. هذه هي الكلمة الوحيدة الصادقة التي قلتها .

ايليا : انا صادق في كل ما اقول . حتى لو اختلفت معي في بعضه . انا صادق وانت صادق .

« وتعجب المصري » .. ها هو « يعترف ببطولاتنا» وايضا « جاشت نفسه برغبة في ان يعانقه » . لكنه أجفل : « انه رجل . وليس انثى » . ونسي المصري قضية الاهرام ، وكيف يكون ايليا صادقا وغير صادق فيها .

....

ربيع : انا اسمي .. ربيع .

ايليا : ربيع ؟ انه قريب من اسم ابي : رابين . رابيع . رابين . هذا يثبت الحقيقة . السلالة واحدة .

ـ ماذا تعني ؟

ـ جدنا الاكبر واحد . ابراهيم . هل تختلف معي في هذا .. يا ربيع ؟

ـ لا . أنت صادق ايضا في هذه النقطة .. يا ايليا . واسماعيل واسحق ويعقوب اجدادنا الاقربون. ولكن . ما الذي تريد ان تصل اليه :

ـ (بحسرة) ومع هذا فقد اصبحنا الاعداءالاخوة. او الاخوة الاعداء . متى تنتهي هذه العداوة ؟ وكيف ؟

....

مع ختام الفصل الثاني ، يصلان الى الماء ، وثمة رسم فوق السطور . في « الجريه » ، لقبعتين متعانقتين : اسرائيلية ومصرية .

ربيع : لا . بل اشرب انت اولا . على دفعات . احترس من صدمة الماء للمعدة . لا تنس نفسك وتشربها كلها .

ايليا : ـ خذها كلها .

ـ انها فارغة . اعطيتنيها لانها فارغة . تريد ان تحطم اعصابي .

ـ انا اشركك معي في الفجيعة ، كما كنت سأشركك معي في الارتواء .

....

ايليا : لقمة خبز

ربيع : اين هي ؟ أرنيها .

ـ ها هي . تعال نقتسمها

ـ خذها اقضم منها ثم اعطنيها

ـ هي معك اقضم انت اولا . انا لست جائعا . انا فقط عطشان .

ـ لم اعد قادرا على البلع . حتى اللعاب جف.

ـ الحياة كلها جفت .

....

ربيع : منذ ان تخرجت سنة ١٩٦٧ . وانا ملقى في الرمل . على ضفة القناة . انتظر هذا اليوم .

ايليا : اليوم المشؤوم

ـ بالنسبة لي يوم النصر .

ـ لم يتحدد بعد النصر النهائي .

ـ (متشبثا) مهما حدث ، فقد عبرنا القنال وخط الموت . خط بارليف .

ـ وما المعجزة في هذا ؟

ـ ألم تكونوا تصفونه بانه الخط الذي لا يقهر . ها نحن الان على الضفة الشرقية .

ـ قد تسمعون بعد قليل . اننا احتللنا الضفة الغربية . ضربة بضربة . اعرف كيف تفكر قيادتنا .

ـ (بغيظ) اذن فانتم لا تريدون لهذه الحرب ان تنتهي ؟

ـ لن نقبل انتهاءها ونحن مهزومون .
ـ ونحن ايضا .. أبدا . أبدا .
ـ اذن فهي الحرب الابدية . الفناء للاجيال وراء الاجيال ، منا ومنكم وليعش موردو السلاح : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتي .

ـ (متحفظا) علاقتنا بالاتحاد السوفييتي ليست مثل علاقتكم بالامريكان . نحن ند للاتحاد السوفييتي. بدليل اننا رحلنا خبراءهم العسكريون ودخلنا المعركة وحدنا .

ـ (باشمئزاز) لم ترحلوهم . بل طردتموهم . يا لوفاء المصريين !

ـ (مهانا) لا . لو سمحت . اننا لا ننسى الجميل ، ونعرف جيدا الوفاء (ويعدد الكاتب على لسان ربيع مواقف الاتحاد السوفييتي العظيمة مع المصريين. مخالفا بذلك رأي الاعلام) لقد وفرنا عليهم الدماء . وشكرا لخبراتهم واسلحتهم العظيمة . (مخالفا بذلك رأي الاعلام) الدماء التي تسيل في هذه الحرب يجب ان تكون مصرية مائة في المائة . انها مسألة نفسية . لا بد ان يفهم السوفييت والعالم كل هذا . لسنا جاحدين للجميل . لكنه الموقف الوطني والقومي وعليكم أنتم ايضا ان تفعلوا مثل هذا ... هذا هو امتحانكم الاكبر . ثم نتواجه .. ونرى من فينا المتفوق . أنتم شعب الله المختار . ونحن خير امة اخرجت للناس .

ـ انتم مائة مليون (١٤٦ الرقم الصحيح) ونحن مليونان او ثلاثة . ستبتلعوننا .

ـ لا . لن يمسكم احد طالما التزمتم حجمكم وحدودكم (اية حدود يا اخ عبد الله يا طوخي .. ٤٧ أم .. واين حدود الفلسطينيين وحجمهم وحقوقهم؟) لكنها عقدة الخوف الازلية، عقدة الاحساس بعدم الامان.. انتم قوم لا يوثق بكم .
ـ وانتم متخلفون .

....

ويتناقشان حول ما يقال عن اليهود للعرب ، من وجهة نظر ايليا : صلب المسيح . والقومية الفاشية ، واضطهاد فرعون ، وهتلر ، وملوك اشور وبابل ، لليهود.

ـ قل لي يا ايليا .. لماذا التاريخ مغرم بتسليط الغزوات عليكم ؟

ـ (ساخرا) ليس هناك شعب تسلطت عليه الغزوات والاضطهاد مثل شعبكم . انكم مضطهدون اكثر منا .

ـ انتم هربتم من الاضطهاد . اما نحن فقد بقينا نقاوم على ارضنا .

ـ لم تبقوا كلكم . موجات واسعة من المصريين هربت امام الاضطهاد اما الى بلاد اخرى . واما الى الصحراء (!!) من بقي منكم على ضفة النهر هم القلة الصامدة ، مثل من بقي منا على ارض فلسطين (فللاحظ ان ايليا لم يقل ارض اسرائيل فهو مسير بعقل المؤلف) بقيت النواة المصرية عندكم ، وبقيت النواة الاسرائيلية عندنا . (وتنهد !!) تاريخنا يا صديقي مشترك . نحن ابناء منطقة واحدة ، وابناء ألم واحد ، وامل واحد .

(كل ما فكر فيه المصري بعد راي ايليا لم يكن مناقشة رأيه ، فالمؤلف لا يريده ان يناقش لان هذا ايضا هو رأيه الحقيقي . او هكذا يجب ان يكون في رواية مكرسة لدعم السلام . اي سلام ، وانما كان تفكيره المسير هكذا : « غريب امر هذا الاسرائيلي : هل دراسة التاريخ وتخصص الاثنولوجي خلقت عنده هذه الافكار؟»، بل يتجاوز ذلك الى موافقة في وحدة الاضطهاد للمصريين والاسرائيليين من الفرس واليونان والرومان في التاريخ القديم ، لكن الموقف تغير .

ـ اصبحتم الفرعون الاسرائيلي الجديد . او هتلر الاسرائيلي الحديث . أصبحتم مثل أغنية مشهورة عندنا تقول : « مين عذبك . بتخلصه مني »
(يا للغثاثة !!)

ولم يتما حوارا يذكر بعد ذلك، فقد دوت الانفجارات في البعيد القريب ، وصاح الاسرائيلي نائحا (ياسلام) :
ـ أين الامان . فرعون عندكم . هتلر عندكم .
ـ (غير نائح) بل عندكم .
ـ عندكم .. وعندنا . ها هو الموت فوقنا نحن الاثنين . نحن وانتم نقتل . بطائراتنا وطائراتكم نقتل .
(لقد قرر المؤلف للاثنين أن يعيشا ، ولا شأن لهما ، تقريبا، بالحرب الدائرة) .

....

يناجي ايليا .. سارة في ذات نفسه : « دعيني اقول لك سرا : انني لا اريد لربيع ان يموت . اريده ان يعيش ليعمر سيناء . أليس كذلك يا ربيع ؟ لماذا لا تكلمني . هل انت طائر مثلي (في بلادك) اياك ان تموت وتتركني وحدي .

قال المصري وكأنه قد سمعه : « هل تشعر بالوحدة. من قال ان الموت وحدة . بل من قال ان الموت موت » .
ويسمعان صوت انات لجريح .
ربيع : انه عدو لواحد منا بالتأكيد .
ايليا : وهو صديق للاخر بالتأكيد . واذن ؟
ـ واذن ماذا ؟
ـ نحن اللذان نرجح الكفة . اثنان ضد واحد . انت وانا ضده . هذا لو اختار موقف العدوان. اما اذا اختار السلام . فنصبح ثلاثة معا . ماذا قلت ؟
ـ هل انت صادق في كلامك يا ايليا ؟
ـ ربيع . لماذا لا تثق فيّ ؟ يجب أن تثق فيّ .
ـ انت تطلب المستحيل يا ايليا.

ـ المستحيل الممكن يا ربيع ... لو تعاهدنا .
ـ لو صدق كلانا في عهده !!
ـ لو صدق كلانا في عهده !!

وبدءا الزحف اليه ، واكتشفا ، وقد اتفقا انه مصري جريح ، يحمل ماء ، وراح ثلاثتهم يؤثر احدهم الاخرين به اولا على نفسه واكتشف المصري الوافد من لهجة ايليا انه اسرائيلي فهم بقتله ، والشرب من دمه (هكذا قال الطوخي) ، وعير ربيعا بانه « خيخة »وخائن او جاسوس ، لكنه عجز بسبب نزيفه (وايليا واقف يتفرج بسلبية تامة) ثم تعاون ايليا مع ربيع في تمديده واراحته حتى مات ، وهو يقول لربيع :

ـ أنا .. انا عبرت . اذهب الى البلد وقل لهم هـذا .

مات الوافد المصري ، غير المعروف الدين ، وصلى عليه ربيع كمسلم وصلى عليه ايضا ايليا كيهودي .

ـ ربيع . هل انت متأكد انه مسلم ؟

واكتشفا من تفتيشه صورة لامرأة شابة . كتبت على ظهرها اهداء : اليك يا يوسف .... رجاء .

ربيع لايليا : أرأيت . اسمه يوسف . يعني مسلم . اسمه على اسم ابي (فيما بعد نكتشف ان ربيع اسمه : ربيع عبد الحكيم . وليس ربيع ابن يوسف).

ـ يوسف . يمكن ان يكون مسلما ، ومسيحيا ، ويهوديا . القرآن عندكم يؤكد هذا .

وكانت صلاة ايليا على يوسف هي : « سلاما ايها الميت » .

واخذا يدبران لدفنه ، فاكتشفا جثة اسرائيلي اسمه ايزاك « اسحق » . (هكذا قال المؤلف على لسان ايليا ، وقد مات وهو جالس الى مائدة فاخرة حافلة بأكل . وصاح ايليا :

ـ الموت على الطعام مرعب . آه لو كاميرا تنشر صورته في كل صحف العالم : « هذا هو ما تفعله الحرب . الموت على الطعام » .

ـ وتبررون لهجمة أخرى . ويعود الموت يا ايليا على الطعام وعلى الرجال وقد ننضم نحن الاخران اليهما، ونصبح اربعة في الصورة .. البقية في حياتك يا ايليا.. حياتك الباقية .

وجلسا يأكلان من المائدة الاسرائيلية الحافلة بالاصناف . وبدا ربيع حائرا بأيها يبدأ . فقال ايليا :

ـ سأبدأ بالخبز. احب ان ابدأ بالخبز . نحن نصنع خبزا جيدا .

وفكر ربيع : «الخبز الذي يدخل بطنه الان خبز اسرائيلي ، ودبيب الحياة الذي يشتد في عروقه بفضل الطعام المصنوع في بلاد اعدائه . الخبز لا جنسية له. القمح هو القمح في كل بلاد العالم . ان كان (ايليا)يعيد لي الحياة الان بخبزهم . فقد اعدت له الحياة بمائنا.

وحدث كلاهما صاحبه، بانه سيحدث اهله عن هذه المعجزة : طعام من اسرائيل للاثنين ، وماء من نيل مصر للاثنين .

وشبعا وارتويا ، وثقلت رأساهما ، وناما على حذر، كلاهما حذر من صاحبه ، لكنهما ناما .

واستيقظا على صوت . واكتشفا ان الصوت لراديو ترانزستور (اين كان هذا الصوت طوال الاحداث السابقة؟) ثم ألم يخطر ببالهما او ببال احدهما وقد تحركا ، ووقفا، وصليا ، وأكلا ، ان يعرفا ما يجري حولهما خارج الحصن؟ لكن كل شيء مدبر . من اجل السلام والاخوة يجب ان يبقيهما الكاتب في الحصن لا يفارقانه) .

وتبدو تعليقاتهما على اخبار الراديو امرا هزليا وان كان يتظاهر بالجد التام .

ـ ديان وصف خط بارليف بانه قطعة من الجبن الهش . ليس في السيطرة عليه اية بطولة .

ـ وقبل ذلك كان الحاجز الالكتروني الرهيب . اليست احدى الحقيقتين كذبة ؟

ـ لم يكن خط بارليف في حقيقته معجزة . خلقنا حوله هذه الهالة لتخيفكم ، وحين واجهتم الخوف لم تجدوا الشيء الرهيب الذي يصيبكم . ومع هذا فانتم ستصرون على انه كان خطا رهيبا لتضخموا انتصاركم. اوهام ، يرد عليها بأوهام !!

« وزعزعت ربيع الفكرة » .

....

ـ هيا يا ايليا قد اجد جنودا مصريين منتصرين يلتقطونني .

ـ فلنكن حذرين ونحن ننتظر . فللصحراء عيون .

ـ (بأسى) عيون منا ومنكم .

ورأيا عن بعد طائرة تنفجر في الجو ، وتتجه ناحيتهما بسرعتها العمياء المجنونة :

« ابتعدي ايتها الطائرة عنا . سواء كنت مصرية او اسرائيلية ابتعدي . يا شيطان الموت . يا شيطان الموت .

(لمن كان هذا المنولوج : لايليا ، ام لربيع ، ام لهما معا ، ام انه للمؤلف) .

انني ارشح اخانا « عبد الله الطوخي » بهذه الرواية لجائزة السلام السويدية النوبلية في الادب . ولا اظن ان له فيها منافسا بين الاسرائيليين أو العرب ، وليته ينالها !!

....

ـ ليس في الخارج غير الموت . هيا نعود الى الحجرة نسترجع انفاسنا .

ووافق ربيع على ألفور . فنهض : هيا .

ـ ونفكر فيما يجب ان نفعل .. قد نصرع نحن الاثنين . من يدري . ننتظر حتى يحل الليل ، ثم يتسلل كلانا في الظلام عائدا الى بلاده ، متمنيا حظا سعيدا للاخر .

اهتز ربيع للامنية .. وفرح الاثنان لانهما وصلا الى هذا القرار . « وفكر كل منهما انه عقد معاهدة يحاكم عليها في بلاده . (ثم بابتسامة مرة) انهم لا يعلمون شيئا » .

....

والقيا بالجثتين معا في خندق واحد بالحصن ، بعد جهد جهيد ، ثم جلسا يتحدثان عن منطقة الاديان ، والايمان والالحاد .

....

والجنديان ، واحدهما قد عبر ، والاخر قد دافع عن مكمنه بالسلاح ، قد جلسا يتحدثان بهدوء :

ربيع : انا لم اقتل احدا منهما يا ايليا . دعك من هذا الاحساس بالذنب .

ايليا : انه الاحساس الوحيد الباقي ليحفظ لنا كرامتنا مع انفسنا . ان نعامل انفسنا كمجرمي حرب . نحن وانتم . من يشعلها ، ومن يقبل ان يكون وقودا لها. الاحياء منا والموتى . يجب ان يتوقف كل شيء وتعقد المحاكمة . اتدري ما هي امنيتي الان يا ربيع ؟ انني اتمنى لو ان هذا الذي حدث بيننا نحن الاثنين ، يحدث بين افراد جيشنا . ان يتلاقى الجيشان في السر ، بعيدا عن عيون قادتهم وجنرالاتهم ويجتمعون حول موتاهم ويناقشون القضية . سيصلون فيها الى حل نهائي ، ووداعا للحرب الى الابد .

ربيع : اذا كنت مؤمنا بالسلام الى هذا الحد ، فلماذا لو ترفض أصلا الاشتراك في هذه الحرب حتى لو كانوا قد ادخلوك السجن ؟

ايليا : وهل دخلت انت هذه الحرب باختيارك يا ربيع ؟

ربيع : هذا صحيح يا ايليا .

(يا الله ! فيم كان بقاء ربيع اذن في خنادق الرمال المسلحة ، غربي القنال طوال ست سنوات . وكيف كان في سياق الرواية مؤمنا بتحرير الارض وحق بلاده فيها ؟)

ويتحدثان عن عقدة سكان الجزر لدى اليهود . ويصلان الى المشكلة الفلسطينية .

.....

ربيع : لكي نكون واقعيين . تعود سيناء لمصر . والجولان لسوريا . وتنشأ للفلسطينيين دولة . ونعيش كلنا في جوار حسن .

ايليا : (بل) أرض واحدة . هي ارض فلسطين، تقوم عليها دولة واحدة يعيش عليها الجميع: الفلسطينيون الاسرائيليون ، والفلسطينيون العرب !!

(هذا هو رأي بيجين وصقور اسرائيل على لسان ايليا حمامة السلام) .

ربيع : انت تخيفني بتطرفك يا ايليا . **فهذه مرحلة بعيدة . وان كنت أعتقد انها يمكن ان تحدث في يوم من الايام** (لصالح من يا عم طوخي ؟ ـ معذرة . اقصد: ربيع ـ هل سيعود في هذه المرحلة الفلسطينيون اللاجئون الى ارضهم ، أم سيستبعدون كما هو رأي اسرائيل ؟ هل ستكون دولة علمانية تحكم بنسبة السكان من عرب ويهود ، ام ان العرب سيخضعون للحكم الاسرائيلي كما هو الشأن الان ، ويمنحون فقط حقوقا دينية خاصة، واشرافا على شؤونهم الاجتماعية كمواطنين من الدرجة الثانية او الثالثة ؟) . ولكننا نتكلم في الممكن اليوم لوقف المجزرة بسرعة : دولة لفلسطين العربية بجوار دولة فلسطين الاسرائيلية . (ما حدودها ، وما حريتها السياسية والعسكرية . بجانب دولة عسكرية فعلا ؟ . والكارثة هو ما يلي من اقوال الطوخي على لسان ربيع :) ويمكن فيما بعد عقد اتحاد بينهما ، يمهد لوحدة في الزمن القادم .

بالطبع سوف يوافق ايليا في الحال (بشروطه المضمرة) :

ـ آه يا ربيع . صحيح . لماذا لا يتحقق هذا ؟

وسمعا معا صوت دبابات ، لا يعرفان هويتها .

....

اكتشفا من الراديو حكاية الثغرة الاسرائيلية ، ووصول اسرائيل الى الضفة الغربية للقناة ، وحصار الجيش الثالث ايضا . وتألم بالطبع ربيع ، وفرح بالطبع ايليا ، ووعيا ان الدبابات التي يسمعان هديرها دبابات اسرائيلية . وبدا حقا ، في حدود ما دبره المؤلف ، الموقف الدرامي . ومع ذلك فقد شربا ما بقي من الماء في زمزمية يوسف . وتمددا استعدادا للنوم ، مع اختفاء صوت الدبابات .

ـ نم هنا يا ايليا . بجانبي . أريدك بجانبي .

ـ ها انا بجانبك يا ربيع .

ـ النوم يا ايليا جميل . هات يدك .

ـ ها هي يدي .

ـ تعبنا كثيرا يا ايليا . لا تفتح عينيك يا ايليا . اغمضهما مثلي تسترح .

ـ اغمضتهما يا ربيع .

واستيقظ ربيع بعد فترة لا يستطيع احد حسابها « كأننا اهل الكهف » .

ـ اصح يا ايليا . صوت الدبابات عاد ، وهو قريب منا هذه المرة .

وخرجا من كهفهما . صاح الاثنان في نفس واحد:

ـ دبابات مصرية .

وفوجئا بعربتي جيب تظهران بعد آخر دبابة .

وصاح ايليا مهللا :

ـ اسرائيليون . العبقرية الاسرائيلية . يا احبائي. أنا اسرائيلي . انا اسمي ايليا رابين .

وجرى اليهم فاردا ذراعيه بالاحضان .

وارتد ربيع مسرعا الى عتمة السرداب ، وتكور على ذاته خلف الثلاجة وزعم ايليا ، فيما حكى المؤلف ، انه وحده ، وان ليس في الحصن احد .

وتقدم الجنود للاطمئنان على تطهير الحصن ، واكتشفوا جثة المصري يوسف مع جثة ايزاك في حفرة واحدة . فثار القائد على ايليا ، لانه يلوث جثمان ولده الطاهر ايزاك . وساق الجنود الاسرائيليون ربيعا الى قائدهم ، واتهموا ايليا بالجبن وتعريض افراد من جيش الدفاع للخطر . وسرعان ما جاء رجال المخابرات الاسرائيليون وعقدوا لايليا محاكمة ميدان سريعة .

وأعدم الاثنان : ربيع ، ثم ايليا ، رميا بالرصاص، برغم دفاع ايليا المجيد عن نفسه ، وعن ربيع ، حتى لا ينتشر الميكروب ، ميكروب السلام بسبب ربيع في مصر، وبسبب ايليا في اسرائيل .

وعاد السكون الى الصحراء .

● ● ●

انتهت الرواية ، وما يزال السؤال الحائر معي ، عن سبب اقدام دار الثقافة الجديدة ، ذات الوجه التقدمي ، وصاحبها فيما اعلم معارض لاتجاهها ، على الاقل في كيفية ما تدعو اليه من سلام ، وما سار فيه طريق السلام ، وليس عن هذه الحركة المفاجئة ، بهذه الرواية من عبد الله الطوخي . والتي تؤكد لي ، ماحدث من انفصام بين فكره وما يكتبه ، وبين ما يقول شفاها، وما يكتبه تحريرا .

وهكذا كان الفجر جنينا في رحم حصن ، والحرب دائرة على ضفاف القنال ، في اكتوبر ١٩٧٣ . فجر الزمن القادم !! واي فجر !!

القاهرة

محمد كامل الخطيب

عبد الرزاق عيد

في دراستهما

عالم حنا مينه الروائي

صدر حديثا

صدر حديثا

الأفواه

مجموعة قصص لـ

عبد الرحمن الربيعي

منشورات دار الآداب